الابداع الخالد

«رادو بيليقان» في حياتين، واحدة على الخَشَبةِ، ختمها ببطولة مَسْرَحِيّة «الخَالد»

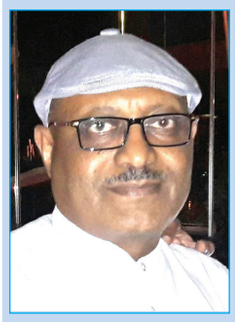

بقلم
د. عصام محجوب الماحي
isammahgoub@gmail.com

■ عاصر بيليقان كل عهود الدولة الرومانية الحديثة، المَلَكيّة الدَسْتوريّة بديمقراطيتها وحربين عالميتين والجمهوريّة الشعبيّة ثم الاشتراكيّة الشيوعيّة، واعتباراً من ديسمبر ١٩٨٩ عادت الدَيمقراطيّة التعدديّة واقتصاد السوق ليبدع في ظلهما

■ شاهدته اول مَرّة على خشبة المسرح قَبْل ٤٠ سنة، وعندما بلغ التسعين، حرصت ألّا أفوّت له أي عمل جديد أو قديم، وكانت فرصة رائعة لا للمقارنة، وإنما لمقاربة أكثر من حالة.. منها حالة المشاهد نفسه، مَتابعاً ومستمتعاً وممتحناً ذاكرته، معمقاً دهْشَته

■ بعد انتهاء المسرحيّة كنا نقف وقتاً طويلاً نصَفّق له، وأسْأل نَفْسِي إن كانت هذه هي المَرّة الاخيرة التي أشاهده فيها، فتصبح وكأنها تحيّة وداع

■ على الأقل ثلاثة مَرّات في العام كنت أشاهده يؤدي دوره الثاني في الحياة، وفي كل مَرّة أقول ليتها لا تكون الأخيرة.. أو هل من مَرّة أخرى؟

■ أول أدواره على الخشبة كان في «الجريمة والعقاب» لدوستويفيسكي وآخر عمل قام به بطولة مسرحيّة «الخَالد»

■ مَثل بيليقان بطولة مسرحيّات رومانية لكُتّاب بدءً من يوان لوكا كاراجيالي مرورا بكاميل بيتريسكو وميرتشيا اشتفانيسكو حتى الكساندرو ميريدان.. ومن الكتاب العالميين شيكسبير. جيهوف. قولدوني. بيرناندشو. مكسيم غوركي. البيرت كاموس. نيل سايمون والروماني الذي عاش في فرنسا وكتب بلغتها يوجين يونيسكو. فتصوّر أي أدوار أدى، وأي شخصية كان في الحياة وفي المسرح

رادو بيليقان (١٤ ديسمبر ١٩١٨ - ٢٠ يوليو ٢٠١٦)

فندق انتركونتيننتال بوخارست وبجانبه المسرح القومي في العهد الشيوعي قبل تجديدهما

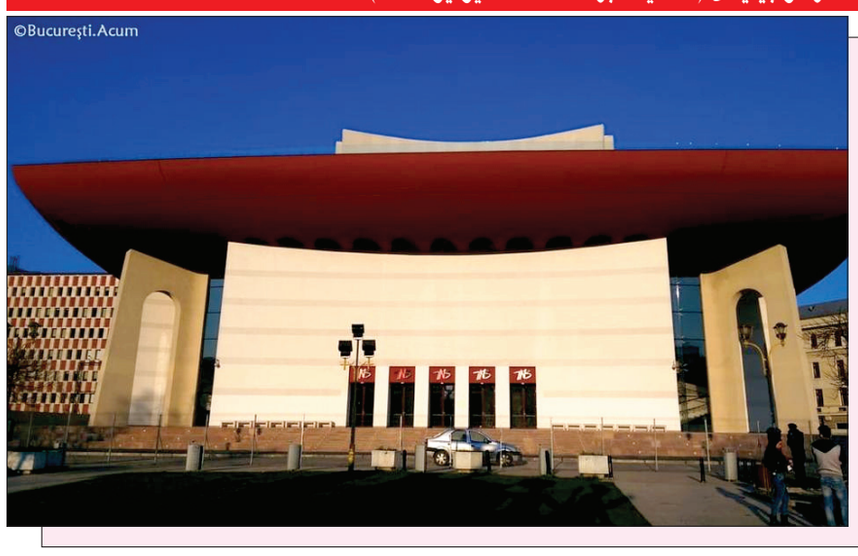

المسرح القومي ببوخارست بعد تحديثه

تابعت في رومانيا مَسْرَحيّاً، اسْمه رادو بيليقان (Radu Beligan)، ظل يقوم بدوره في المَسْرَح بذاكرة خرافيّة حتى وفاته عن عُمْر اقْتَرب من ٩٨ سَنة (١٤ ديسمبرً ١٩١٨ مولده. ٢٠ يوَليو ٢٠١٦ وفاته). احْتَفل المسرح الروماني، في ١٤ ديسمبر ٢٠١٨، بالذكرى المئوية لميلاد بيليقان في ذات العام الذي احْتَفلت فيه رومانيا بمئوية الوحدة الكُبْرى للبلاد. عاصر بيليقان كل عهود الدولة الرومانية الحديثة، المَلَكيّة الدَسْتوريّة وحربين عالميتين والجمهوريّة الشعبيّة ثم الاشتراكيّة الشيوعيّة، واعتباراً من ديسمبر ١٩٨٩ عادت له الديمقراطيّة التعدديّة واقتصاد السوق ليعاصرهما.. فيا لغزارة عطائه، وتخيل كيف نما ابْداعه وصمد وصعد به، ولك ان تَسْأل كيف أحاطت به كل تلك العهود وكيف أحاط بها؟

آخر مَرّة صعد فيها بيليقان الخشبة كان في مايو ٢٠١٦، ويا للغرابة في مسرحيّة «الخَالد». كانت القاعة، مثل كل حفلاته المسرحيّة منذ عشرات السنين، مليئة وتفيض جوانبها بطلاب «معهد الكونسرفاتور» الذين يمنحون وضعاً خاصاً على الأطراف عندما تنفد التذاكر.

40 سَنة مَضَت مُذْ شاهدته يُمَثِل:

شاهدته اول مَرّة على خشبة المسرح قَبْل ٤٠ سنة، وظللت أتابع كافة الاعمال التي مَثَل فيها أو أخْرَجها. عندما بلغ ٩٠ سنة حرصت ألّا أفَوّت فرصة ظهور له في المسرح بأي عمل جديد أو قديم، وقد قام بإعادة تمثيل أدْواره في اعمال قديمة وكانت فرصة رائعة للمشاهد مثلي الذي تابعه من قبل في ذات الادوار، لا للمقارنة، وإنّما لمقاربة أكثر من حالة.. منها حالة المشاهد نفسه، متابعاً ومستمتعاً وممتحناً ذاكرته، معمقاً دهْشته.

كان الحصول على مقعد للتمتع بمشاهدته يؤدي أدواره المُتَعَدّدَة والمختلفة في العديد من الاعمال المسرحيّة يحتَاج أن تحجز له قبل ثلاثة أشهر على الاقل وبالعلاقات، فما بالك ان كنت تحبذ مقعداً مميزاً، في صَف ومَكان مُتَمَيّز.

في كل مَرّة كنْت أنْتَظِر وأمَنّي نَفْسي أن أتَمكّن من مشاهدة بيليقان على خشبة المسرح، فقد تكون آخر مَرّة.

كنت كلما أحصل على تذكرتين لعرض بعد ثلاثة أشهر . عندما يصعب الحصول عليهما من شباك التذاكر ألجأ الى الاتصال عبر مكان عملي بمدير المسرح وعندها أحصل على دعوتين اكراميتين ،، فأبدأ عَد الإيام: هل سألْحق أن أراه يمَثل؟ وعندما يبدأ العرض أشغل نَفسي أحيانا بالتفكير والسؤال: ماذا لو لَمْ يَسْتَطِعْ إكْمال العَرْض؟ كنت أجلس كغيري مندهشاً لمشاهَدة المسرحيّة التي قد أكرر حضورها مرتين في العام إذا لم تتغير، وفي كل مَرّة كنت أحاول أن أتَسَقط ضياع نَص من ذاكرته فلم يحدث ذلك البَتّة.

بعد انتهاء المسرحيّة كنا نقف وقتاً طويلاً نصَفّق له، وأسْأل نَفْسي إن كانت هذه هي المَرّة الاخيرة التي أشاهده فيها، وأظن أنه كان يسيطر ذات السؤال على كل الحضور، فتصبح وكأنها صفقة وداع.

وما أن يتم الاعلان عن عمل جديد أو إعادة أي عمل سابق إلّا وأسعى لأحجز مقعدين، وأظلُ أحْسب في الزمن في ظل سؤال لا يفارقني ويؤرقني: هل بالفعل سأشاهده يمَثل؟ وهَكذا..... على الأقل ثلاثة مَرّات في العام كنت أشاهده يؤدي دوره الثاني في الحياة، وفي كل مَرّة أقول ليتها لا تكون الأخيرة.. أو هل من مَرّة أخرى؟

الغريب أن آخر عمل قام به على الخشبة هو مسرحيّة «الخَالد». قال بيليقان في حديث صحفي عقب المسرحيّة: «من بين كل روائع الاعمال التي قمت بأداء دور فيها، فإن الاجمل هي حياة تعيشها بشكل جيد.. وأود لو أقول انها عمل إبْداعي للتَمَيُز.»

أتمنى أن أجد الوقت لترجمة ذلك الحوار الذي احتفظ به.

بيليقان.. حياة في حياتين

غادر المايسترو رادو بيليقان خشبة المسرح وهو يغادر الحياة، وترك خلفه حزناً عميقاً وموجة اعتراف بفضله من قبل ممثلين مهد لهم الطريق ومنحهم اجنحة يحلقوا بها في دنيا الإبداع والتَمَيُز، ومضى إلى ربه تاركاً مشاعر دفاقة بحُبه من قبل رواد المسرح الذين أحبوه كما لم يحبوا آخر.

في حَدَث ربما لا يتكرر قريباً مَرّة أخرى، وهو يحتفل بيوم ميلاده عام ٢٠١٤، سَجّل الممثل القدير رادو بيليقان نفسه في كتاب الارقام القياسيّة. غينيسبوك. حاصلاً على شهادة الممثل الأطول عُمْراً على خشبة المسرح وكان حينها لا زال ناشطاً يؤدي ادوار البطولة في مسرحيّات تتطلب قبل كل شيء ذاكرة النص ووضوح الصوت، فلم يترك تأثير العُمْر والكبَر اثراً لشيخوخة فيهما، وإنما على الجسد فقط.

وبإبْداع غير منظور مَثيْله، كان يجعل المشاهد يتابع حركة الجَسد ولُغته وكأنها جزء من النص والسيناريو وتعليمات المُخرج الذي كان في كثير مَن مسرحيّاته هو نفسه المايسترو بيليقان، فتقول في سرّك وانت تتابعه «يا لروعة الميكياجيست»، وفي النهاية تجد أن المسألة لا تعدو أن تكون «حاصل ألق رادو بيليقان»، ولصعوبة حركته في السنوات الاخيرة صار مَن معه من ممثلين في الخشبة يقومون بحركات اضافية ليساعدوه للقيام من مكانه أو ليجلس أو ليمشوا بجانبه من مكان في الخشبة لغيره، فأصبح ذلك جزءً من عملية الإخراج والمشهد. كنا نصفق بشدة للمشهد الجديد.

طوّع حَركة شركائه في الخشبة لتصبح مساعدتهم له عندما يَنْهَض أو يَجْلس أو يَمْشي جزءً من المشهد. كنت اتابع ذلك بشغف. ومع ذلك كانت له ذاكرة خرافيّة.. النص هو النص، وأية اضافة كانت تَجْويداً وليس نَقْصاً.. ياااااه، كم كُنتَ عبقرياً رادو بيليقان.

دَرَسَ القانون والفَلْسَفة والمَسْرَح

دَرَسَ بيليقان، الذي أدى مئات الادوار في المسرح والسينما وأمام كاميرات التليفزيون، القانون والفَلْسَفة مستعملاً المنحة المالية التي حصل عليها لتفوقه، لتسديد رسوم الدراسة في معهد الكونسرفاتور بالأكاديميّة الملكيّة للموسيقى وفن الدراما حيث تلقى علومها من الممثلة والمبدعة المسرحية الشهيرة «لوسيا استوردزا بولاندرا» التي سُمّيَ باسمها أقدم مسرح في وسط العاصمة بوخارست، «مسرح بولاندرا» بصالتيه الشهيرتين، الصغرى بجانب «حديقة ايكواني»، والكبرى بالقرب من «ساحة كوقولينشيانو» على مرمى حجر من ضفة نهر «ديمبوفيتسيا» الذي يعبر المدينة مَن الغرب للشرق.

أول أدواره كانت في مسرحيّة «الجريمة والعقاب» لدوستويفيسكي وقد تَقَمّص بيليقان العديد من الشخصيات المتباينة في أدوار رئيسة في كل الصالات والقاعات، ومَثل في المسرح القومي ببوخارست بمقره القديم أمام فندق «كونتيننتال» العريق حتى تدميره في الحرب العالمية الثانية، وانتقاله بصالاته وخشباته الثلاثة الشهيرة لمقره الحالي في ساحة الجامعة بجانب فندق «الانتركونتيننتال» الحديث الذي كان حتى نهاية العهد الشيوعي السابق أطول مباني وسط بوخارست المليء بالعقارات القديمة الجميلة الرائعة، التي يشع منها عبق التاريخ.

لَعب رادو بيليقان أدوار البطولة في مسرحيّات رومانية كثيرة لكُتّاب بدءً من يوان لوكا كاراجيالي مرورا بكاميل بيتريسكو وميرتشيا اشتفانيسكو حتى الكساندرو ميريدان.. ومن الكتاب العالميين شيكسبير. جيهوف. قولدوني. بيرناندشو. مكسيم غوركي. البيرت كاموس. نيل سايمون والروماني الذي عاش في فرنسا وكتب بلغتها يوجين يونيسكو. فتصوّر أي أدوار أدى، وتصوّر أي شخصية كانت شخصيّة رادو بيليقان، في الحياة وفي المسرح.

كان بيليقان انساناً فناناً من ضوء وظل.. كان كاتباً قرأت له العديد من المسرحيّات والكتُب والمقالات حول العديد من القضايا وفي عالم المسرح. كان حالة تتجاوز المحددات المعروفة للتَمَيُز، فحصل على شهرة فاقت الحدود، ليس في رومانيا فحسب وإنّما في كل أوربا. وفي دنيا المسرح عندما تقول أوربا، فأنت لا ريب تقصد كل العالم.

كان بيليقان من أهم رؤساء المعهد الدولي للمسرح في تاريخه، وبفهم الجميع كان «الرئيس الدولي للمسرح»، وأطلق عليه فيما بعد الرئيس الفخري مدى الحياة.

عندما صَفّق لِيَ بيليقان

حَييته ذات مَرّة وسلمت عليه في يده قبل سنين. حينها لَمْ يكن في جيبي هاتفاً فما بالك باخر بعدسة تصوير. لَمْ التقط تذكاراً معه أفخر به.. وظللت كلما أتحدث عنه أفْرك كَفّيَ الأيْمَن متذكراً السعادة التي غمرتني عندما وقفت أمامه وجها لوجه وحَييته وتحدث معي بضع دقائق جمعت فيها كل ذاكرتي ناطقا بعض أسماء المسرحيّات التي شاهدتها له.

كان كلما أقول اسم إحداها، أو أتَمتم في نُطق اسم مَنْ قاسَمه أو قاسَمَتْه التمثيل لا البطولة التي كانت معقودة له لوحده، يساعدني وينطق الاسم مبتسماً ويكْمل: انت الان ممثل راااائع خَلَبْتَ لُبّي. اعْجَبْتَني. افْرَحْتَني. ادْهَشْتَني، شكرا لك.

ثم صَفّق لِيَ.

شعرت بزَهو ما بعده زهو، ولا زال المشهد في ذاكرتي كأنه حدث أمس.. بل اليوم قبل ثوان. فأتذكر كيف بادلني مشاعر حب غَمَرْته به في تلك اللحظة، ومعها صَفْقَة، فانعكست الادوار.

وتكرر المشهد وهو على الخشبة:

بعدها، وبعد سنيييين وسنين، كنت في منتصف الصف الأول اتابع عرض «الاناني» للمَرّة الكَمْ لا ادري، وكما كل الحضور وقفت في نهايته أصَفّق له ولمَن معه، ولمَن خلف الكواليس الذين نصَفّق لهَم عادة ولا نراهم، فما كان منْه إلّا أن ترك مَن كان يمْسك بيدها على يمينه ومَنْ كان يمسك بيده على يسَاره، وبدأ يصَفّق ثُمّ أشار بسبابته اليمنى نحوي.. لحظتها الْتَفَتَ كل المسرح نحوي وزادوا في صفقتهم.. يااااه ماذا سأفعل بإدماني للمسرح من بعدك حبيبنا بيليقان؟

وداعا رادو بيليقان.. زرعت الفرح والدهشة فينا

وداعاً وإلى جَنّة عرضها السماوات والأرض فحتماً ستكون كما كنت في الدنيا أحد أدوات الرب لإسعاد عباده في الجَنّة ففيها عنب وقوارير موضوعة، وقد يكون فيها ما فيها من مسرح.

كانت مشاركتك صفقتنا التي تستمر ولا تتوقف مع نهاية أي عَرْض، مشاركة صادقة وكنت صادقاً وأنت تحاول أن ترد وداعنا لك بعد انْتهاء العَرْض، بوداع أفْضَل.

نُم بيليقان رادو مطمئناً في سلام في رعاية رب يجعل بموهبة من لَدُنه، بعض خَلْقه حَاملين حكْمَتَه لبقية خَلْقه يمْشون بها بينهم في حياتين.. حياة مثل حياة كل الخَلْق، وحياة في المسرح، ممثلاً، مخرجاً، كاتباً واستاذاً.. وقد أوصلت الرسَالة «رادولي». وزرعت السعادة والفرح يا رادو. شرحت معنى الحياة وجعلت من المسرح دُنيا مفتوحة يا بيليقان، نلجأ اليها وكأننا نشاهد في مرآة حقيقة تعكس ما جرى. ما يجري. وأحياناً سابَقت الزمن وعرضت امامنا أحْداثاً ستَجْري.. فَجَرَت.

*** (أدناه رابط اليوم صور للمسرحي العبقري رادو بيليقان.. أكثر من 77 سنة على خشبة المسرح. (https://goo.gl/images/rPiYc6**

رادو بيليقان وابنته لامِيّا يتشاركان بطولة مسرحية

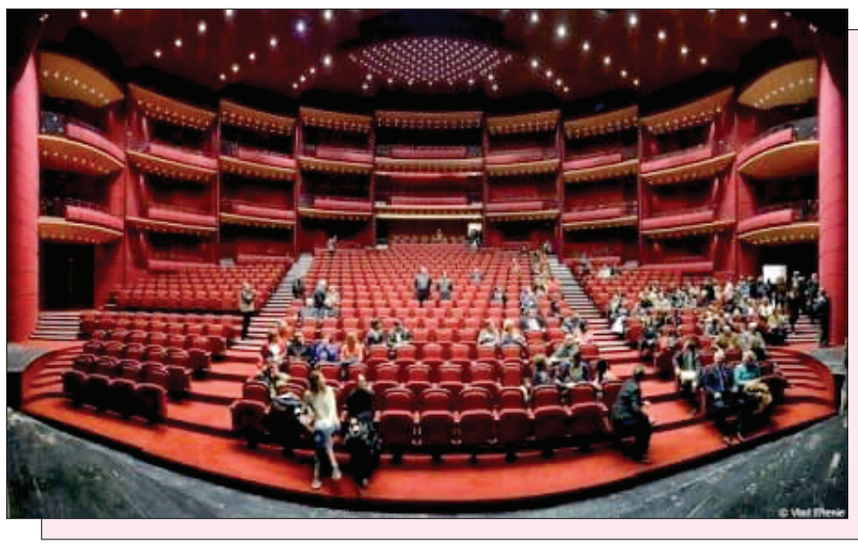

الصالة الرئيسية (القاعة الكبرى) وتتسع لعدد ٩٤٠ متفرجاً وهي الاكبر في اوربا بخشبة عالية التقنية

 # المقال أعلاه تاخر نشره عاماً بالتمام والكمال. كتبته لنشره يوم ١٤ ديسمبر ٢٠١٨ مع بدء الحراك الشعبي فقررت تاجيل النشر لايام. اشتعلت عطبرة يوم ١٩ ديسمبر فاستمر التاجيل حتى لا يكون المقال تغريداً خارج سرب ما يحدث في الشارع.

بعد ايام الغَيْثُ فكرة النشر نهائياً لحين انتصار حراك الشباب الثوري حيث كان واضحاً انه سيستمر ويتطور، واصبح متوقعاً ان يكون ثورة غير مَسْبوقَة طويلة النفس، وهذا ما حدث.

عصام.